ابتهال شامي في ختام عام

| إسماعيل مروة

إلى من جعل للياسمين رائحة خاصة ولدمشق نكهة تميّزها.

-١-

أَخَذَتْ تجوبُ الأرض باكية حزينة...
حصياتها ترفع يديها عالياً نحو السماء..
تذرف دمعاتها، تكشف عن قلبها المدمى، تتوسل بكل ما تملك، من أجل عاشقها، ذلك الراعي الغجري
الذي حمل نايه الأنيق، وجاب به الأرض يغنيها...
شجرات الغوطة رضعت ماءها من عزفه، وأخذت نسغها من أغانيه..
تتحدى سطوة الإنسان الغبي، تشمخ بأوراقها نحو السماء، ترفع أكفها نحو السماء:
– يا رب لم يبق للجمال سواه.

-٢-

فينوس، أفروديت، عشتاروت..
كل ربّات الجمال لبسن أثوابهن الدّكن...
وطافت أرجاء الكون تبكي سيدها، منشئها المتمدد على السرير الأبيض لا يلوي على شيء..

-٣-

البندقية، القدس، المبادئ السامية، تقف كلها على رؤوس أصابعها، لتحوط سرير عاشقها
الراقد مبتسماً كالأطفال، يرفع جسده عن السرير الأبيض حتى لا يلمس الجسد، فيأخذ من
إباء الشعر، وقد وهبه للأرض والإنسان.
في الأرض العربية نهر واحد يدعى (العاصي).
ومذ رقد شقيق الجمال صارت كل الأنهار عاصية:
الفرات... النيل... دجلة
كل الأنهار اتجهت صوب الشمال، ومدّت أصابعها لترش سريره وغرفته بماء الطهر المقدس الذي نذر له حياته كلها... فكان ما كان.
الحارات العربية من المغرب إلى الخليج تتابع تنهداته، تنتظر أخباره من غرفة العناية المركزة، تقرؤها على أوراق الورد الجوري الدمشقي، وعلى أوراق الياسمين البلدي..

-٤-

شياطين الشعر، ملوك عبقر، كهنة الفن..
كلهم يجتمعون الآن
يتهامسون
كل العالم عندهم يتساوى إلا هو...
إلهامه شآمي يخرج عن السيطرة
ومحبوبته تلفح الشمس بأنفاسها، وتدوّخ القمر بعطرها...
محبوبته الشام صامتة ساكتة!!
وحدها لا تذرف الدمع، فقد خبأت دمعها، أرسلته في قارورة، وسكبته في المصل المعلّق فوق سريره...
تقف من البعيد، ترقب حال وليدها المدلل، الذي يجوب شوارع دمشق القديمة بين باب توما والقيمرية، والبزورية، بين أكياس البهارات، وزجاجات العطر المصنوع هنا..
وقفت محبوبته الشام لتحلف بأن (الكتابة عمل انقلابي).
ولتصرخ في وجه القبح: (الحب لا يقف على الضوء الأحمر)..
ولتقص أظفارها التي علّمها أن: (الكلمات تعرف الغضب)..
وحدها الشام لا تبكي، لا تتكلم..
لا تتخيل الحياة دون ابنها وعاشقها، دون الذي جعل العطر الدمشقي عطراً يعبأ في قارورة
من الورق ليتفشى تحت الجلد العربي..
أصابع دمشق العشر، الألف، المليون، المليار...
تمتد جسراً تجاه الشمال..
وآه منك يا الشمال.
يا من تستأثر بهم، وتشمت بالجنوب..
تمدّ الشام أصابعها من الياسمين والفلّ والورد الجوري..
تمسح جبين ابنها الذي أدمن عشقها..
الذي قاوم الطاعون...
وحلف بميسون...
وأراد أن يمحو أُميّة المدينة...

-٥-

أفاق الولد من لحظاته الخرافية
عاد إلى شيطنته وجنونه..
ألقى رأسه على صدرها.
زرع أنفه في جذور الياسمين البلدي، أخذ يشم منها بلا توقف.
حين أيقن أن الياسمين بخير، ألقى نفسه على صدر وردة جورية واستراح طويلاً...
الأم تقف فوق رأسه مذهولة، تداعب غرته الشقراء الجميلة، تتحسس مساحة الياسمين والجوري.
وترى الياسمين المفجوع مقابل الجسد الذي نثر عبقه، فصار أباً للياسمين، ولكل الروائح الآسرة.

-٦-

الفيحاء تنحني أمام ولدها الأسطورة..!
لا تنحني الفيحاء عادة..
لا تخفض الأم هامتها لولد.
إلا إذا كان الولد هو أشقرها الوفي الذي يتنفس هواءها أينما كان، ويشرب ماءها من صنابير الكون، ويزرع عطرها على الأرصفة العارية.
لا تنحني الشام
لكنها فعلت معه بعد أن وضعت له في حقائبه ما قالته السمراء، وما دوّنته من هوامش على دفتر النكسة، وما خربشته من رسم بالكلمات... وطاف الأرض..
ورأى آخر ما رأى المهرولين، فأغمض عينيه، ورحل إلى الضباب.

-٧-

حاذري يا دمشق على الجسد المعطّر بالشعر، ضعيه بهدوء حتى لا تنفرط عقود الياسمين..
وسدّيه بكتب القراءة التي تعلمها..
احرسيه، وقد رفض كل الأحضان وعاد إلى حضنك...

-٨-

حين صدحت مآذن الأموي لصلاة الفجر، جاءت الشام إلى حبيبها فلم تجده، تحولت ثوراته إلى عناقيد عنب وانزرع على شرفات البيوت الدمشقية، وصار دمعة نقية في عين كل حبيبة عربية...
رفعت الشام يديها من جديد:
يا رب..
بينما كان يربط ربطة عنقه، ليخرج إلى سوق البزورية..
في المساء سيدعو إلى وليمة كبيرة لن يحضرها!!

امسحي الدمع يا إفريقيا... أولادك عائدون

كم هي ثقيلة هذه الجنازير.. التي يضعها الزنجي على رقبة الزنجي

| سارة سلامة

بعض القصائد الإفريقية يجب إغلاق الأذنين عند قراءتها لشدة ما تنطوي عليه من صراخ.. صراخ هائل عنيف، غير بشري، صراخ هزّ إفريقيا زاحفاً عبر القرون المتوالية، لم يهدأ ولا لحظة واحدة، في هذا الصراخ كل شيء: العذاب، الآلام، الآمال المستهزأ بها، السجون المغلقة، الكرامة المحطمة، القبضات الغاضبة، والدموع، والصلوات.
في هذا الصراخ حبٌّ لا نهائي لإفريقيا، فيه قلب إفريقيا.. الكبير.. الطيب.
صدر عن وزارة الثقافة والهيئة السورية للكتاب مجموعة شعرية بعنوان «مختارات من الشعر الإفريقي»، وذلك في خطوة للإضاءة على الشعر الإفريقي حيث عمل المهندس محمد الحسن على ترجمة مجموعة من الشعر الإفريقي، وتدقيق ومراجعة مالك صقور، واحتوت المجموعة على أربعة فصول: أنغولا، ساحل العاج، غامبيا، غانا.

في قصيدة «الرجال إلى الحرب قد ذهبوا»، يلقي الضوء فيها على الشباب الذين تركوا منازلهم وأطفالهم ونساءهم وذهبوا متجهين إلى الحرب، والمعاناة التي يخلفونها بغيابهم، حيث لا وجود للحياة فالقرية تبدو مهجورة والأطفال لا يتوقفون عن البكاء أما الأمهات ففي حالة ضياع وتفكيرهن فقط بالذكريات أما المسنون فالحيرة تبدو عليهم:
قرية شبه مهجورة يلعب الضوء والظّل فيها بصمتٍ
وينكسران معاً
بين أكواخها
والصغار ينوحون
كلّ المسنين منشغلون بتفكيرهم
والنساء يخضن المياه العميقة في أنهر الذكريات
الكلاب يعذّبها عطشٌ لا يلين
طنين الذباب
الحرارة تسطع مسعورةً
كلّ هذا لأن الذين بأكتافهم يسندون الحياة إلى الحرب قد ذهبوا
الشمس تلهب جسم السؤال الوحيد:
الذين إلى الحرب
قد ذهبوا
هل يعودون يوماً؟
متى يرجعون؟
فحتى الطيور القوية
تعجز عن جرح
تلك السماء الغريقة في لهب
بالجناح
كيانغا إلى الحرب راح
أيرجع يوماً؟
إلى هذه الأرض
أم إنه لن يعود؟
ومن عله الآن يدري؟ الرجال إلى الحرب قد ذهبوا

أغلب الشعر الإفريقي يتكلم بصورة واضحة عن المعاناة التي يعيشها هذا الشعب، وحجم الظلم الكبير الذي يرافقهم في حياتهم اليومية، كما نجد في هذه القصيدة التي جاءت تحت عنوان «بانتظار البلدوزر»، تتكلم عن البيوت الفقيرة التي يقطنها الناس المكونة من خشب وتوتياء وبالرغم من كل هذا البؤس والفقر، إلا أنهم مضطهدون وهنا تقف عجوز بلباسها الأسود تتذكر أبناء القرية والناس الفقراء الذين كانوا يقطنون ويمارسون حياتهم البسيطة رغم كل الصعوبات، إلا أن النهاية كانت عندما اقُتلعت هذه المنازل الفقيرة بوساطة بلدوزر ليس فيه رحمة:
السور أصبح في ساحة العمل
ولكن رائحة الماضي القريب
ما تزال تنبعث من كل شيءٍ
البيت الفقير المرقع
رقعةً فوق رقعة
الخشب والتوتيّاء الصدئة
وما تزال شجرة الباو بابو في مكانها
الشجرة التي لطالما كانت ملعباً للأولاد
أين المخباط؟
أين الموقد وناره؟
البستان هادئ
الأغصان متدليةٌ
مثل السياط
العجوز في ثيابها السوداء منذ الصباح الباكر
تفكر بالذين كانوا هناك:
أوب.. أناكليتو.. شيمينيي
منطقة الواندي في الزمن الماضي
العجوز في ثيابها السوداء تفكر بكلّ هذا
قبل أن يصدر البلدوزر أصواته العنيفة
ويهوي عالمها الأعمى القديم

أما قصيدة «امسحي الدمع يا إفريقيا»، يتكلم الشاعر عن أبناء إفريقيا المهاجرين في بلاد العالم، الذين تركوها وهاجروا بسبب المصاعب التي تترتب على الحياة فيها، ولكن يبقى الأمل لدى الشاعر والتفاؤل بأن كل من غادرها من أبنائها المحبين سيعودون حتماً:
امسحي الدمع يا إفريقيا
أولادك عائدون
عبر العواصف وهزيم الرعود
من تشردهم الخائب
على صوت ضحك الأمواج
والمياه المتراكضة
في الفجر الذهبي
في الغسق الوردي
من القمم الشماء في الأدغال المستحمة بضوء الشمس

وفي قصيدة «الجنازير»، يتكلم الشاعر عن الظلم والعنصرية الموجودين في بلادهم، وأن ما يحزنه هو الاستسلام من الشعب، ودعاهم للوقوف إلى جانب بعضهم البعض، فأبشع أنواع الاستغلال عندما يظلم الزنجي أخاه الزنجي بأمر من مستغلٍ معتد، فهنا يوجه لهم صرخة بأن يتكاتفوا ويطردوا أي محتّل وليكونوا يداً واحدة:
كم هي ثقيلة هذه الجنازير
التي يضعها الزنجي على رقبة الزنجي
إرضاءً لسيده
لا تقفوا في طريق الشعب
أبعدوا هذه الجنازير
اطردوا الحواجز والسدود
دعوا الماء العذب يغمر الأرض
ويجرف أوساخ الظلم
كم هي ثقيلة هذه الجنازير
التي يضعها الزنجي على أقدام الزنجي
إرضاءً لسيده
ثقيلةٌ.. ثقيلةٌ.. ثقيلةٌ هذه الجنازير التي غلّت بها يداي
فلتسقط الأغلال.

في قصيدة «البحر يجتر بالقرب من منزلي الأرض»، نرى حجم المعاناة والفقر اللذين يعيشهما الناس في إفريقيا فهم لم يسلموا من الظلم بكل أشكاله وخاصة الظلم الناجم عن العوامل الطبيعية وخصوصاً في وضعهم ووضع البيوت التي يقطنونها فالخشب والتوتياء ليسا بإمكانهما مقارعة غضب البحر إذا ما غضب وأخذ معه كل شيء بلحظة غفلة:
في المدينة يأخذ راحته البحر!
يدخل كل البيوت
ومن بعض أحماله خشب
وغصون محطمة
ومواقد
في الليل يمضي بهم
فوق أمواجه.. البحر يجترّ
بالقرب من منزلي الأرض
كم من بيوت قد اجتثّ
كم من منازلَ مأهولة
مرة شنّ أقوى هجومٍ
من الليل..
من ظلمة الليل جاء
ولم يبق حائط طينٍ
وجرّ جميع الأواني
وكلّ الدواجن
لم يُبقِ طيراً
هو البحر يجترّ بالقرب من منزلي الأرض

أما في هذه القصيدة «نداء الطبول»، نجد حالة من الحب يقصها الشاعر رغم مرارة الحياة إلا أن الحب موجود في لغتهم وثقافتهم عندما يجتمعون ويغنون:
عندما ننسجم مع نداء قرع الطبول
عندما ننسجم تماماً مع لحن أغانينا الأبدي
عندها
ربما تستجيبين لنداء الروح المجروحة
نظرتك النجمية
ترسل لي أشعةً
من تحت الغطاء
فأجمع الحكمة قطرةً.. قطرةً.. خلف الجفون
روحي تدنو من عتبتك بخطا وئيدةٍ
متناهية إلى لقاء الأمل
متناهية إلى معرفة الذات
يخيّل إليّ أنني.. منذ الأزل أحفظ في روحي هذه الابتسامة!
التي
تنزع القناع
لتهدي حنان القلب!
وتثير الدرب في الظلام
يخيّل إليّ أنني
أستطيع اللحاق بك إلى آخر العالم
إلى هناك..

> كلّ هذا لأن الذين بأكتافهم يسندون الحياة إلى الحرب قد ذهبوا

معرض تشكيلي جاء حاملاً اسمه

عبدلكي يعود إلى سورية مُرحباً به بحفاوة وسط تأويلات عديدة!!

| سوسن صيداوي

رغم بُعد المسافات ورغم البلدان المُحدّة ورغم كثرتها وتعدّدها، إلا أن الوطن يبقى محضوناً في جنبات القلوب، مغموراً بعاطفة متأججة اشتعالاً مهما طال الزمن على الفراق ومهما تعددت الأيام في روزنامتها السنوية من أشهر وأسابيع، ومهما دار في الخلّد من أفكار وهموم ومشاغل، أجل الوطن يبقى حيّاً نابضاً إلى حين العودة، و ربما إلى ما بعد، والتمتّع بالانتماء الفعلي إليه وبالتعايش مع كل ما فيه من حياة.
عاد الرسام التشكيلي يوسف عبدلكي إلى حضن أمه سورية، حاضراً بجدارة، متمتعاً بشعبية كبيرة من متابعيه من الفنانين والمهتمين الذين اغتصّت بهم صالة العرض، ملتفين ومرحبين بالعودة وبالمستوى العالي والمعتاد للفنان يوسف عبدلكي الذي جاء معرضه حاملاً اسمه، مع مجموعة من نساء جسّدهن بقلمه الرصاص، وصحيح أن الفنان قدّم نساءه عاريات الجسد، إلا أنهن ممتلئات بأحاسيس وأفكار عاصفة ومتصادمة رغم هدوء وسحر النظرات، نساء تحكي كل واحدة منهن حكاية أو قصة عن زمن أو حال أو حتى مجتمع.
والجدير بالذكر أن معرض يوسف عبدلكي افتُتح في غاليري كامل الكائن في دمشق–المزة فيلات شرقية، ويستمر المعرض لغاية السابع عشر من كانون الثاني.

الرمزية والأسلوب واحد

وسط حضور فني ومهتم كان الجميع مستمتعاً بأعمال الرسام التشكيلي والتي جاءت بالمستوى المعتاد نفسه من الفنان، وكان من بين الحضور الفنانة التشكيلية رولا أبو صالح التي قالت «المعرض جميل جداً ونقلة جديدة للفنان، وهو مختلف عما قبل من حيث المواضيع ولكن لا تختلف عنده الرمزية أبدا ولا حتى الأسلوب، فهو فنان قوي بالواقعية ولديه رمزياته التي تميزه كونه فناناً مبدعاً».

كثافة فنية عالية

دائما هناك اختلاف سواء بالأسلوب أم بالاتجاهات ولكن هذا يُغني الساحة الفنية ويزيدها تنوعاً، كما قال الفنان التشكيلي سائد سلوم المعرض جميل جداً وأنا سعيد بعودة هذا الفنان إلى سورية وخاصة في ظل هذه الظروف الصعبة، فكلنا نعرف فنه من الخارج واليوم نحن كلنا هنا لنرى إبداعه من قلب سورية، وأيضاً أنا سعيد جداً بوجود الجماهير الفنية في هذه الصالة التي تأثرت بالظروف خلال السنوات الماضية، ولكن العودة وفي هذه الكثافة من الفنانين هو أمر مفرح رغم اختلاف أساليبهم الفنية واتجاهاتهم ومناهجهم المتعددة، وقد يكون المرء في وفاق فني مع الفنان أو العكس، ولكنهم اليوم متفاعلون وهذا الأمر هو الذي يشكل تعاملاً بصرياً بين المناهج في هذه المرحلة من سورية ونحن في المعرض كي نرى كيف الفنان يوسف عبدلكي يرى المرأة، وهي ليست «كما يقولون إنها نصف الحياة بل هو يتعامل معها على أنها كل الحياة».

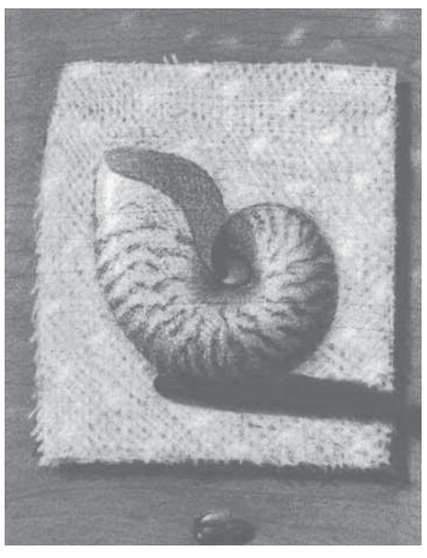

لكل مشاهد منظوره

تحدث النحات إحسان العر عن رؤية المشاهد للأعمال التي يجب أن تختلف عن غيرها وعن رؤية الفنان نفسه بغرض الارتقاء بالفكر والثقافة إلى مدارك الفنان «أنا سعيد جداً لوجودي في المعرض وفي صالة جورج كامل، ومعارض كهذه دليل على أن المجتمع يُشفى أولاً بأول، ومن الناحية الفنية أنا لست بصدد تقييم الفنان عبدلكي لأنه فنان كبير، والأمر واضح أنه يعمل على عنصر وحيد في اللوحة وهو المرأة، ثم إنه حفّار مهم في الأبيض والأسود وكيف يتناغم في تكوين واحد في اللوحة وهذا من السهل الممتنع، وبالنسبة للفنان أن يضع عنصراً واحداً في اللوحة ويعمل عليه ويُقنع المشاهد بعمله، فهذا بالنسبة له أمر سهل لأنه فنان مهم جداً وبعكس الآخرين، أما بالنسبة للمواضيع التي تطرق لها الفنان فأنا أشبّه أي عمل فني بالمقطوعة الموسيقية، وثقافة المشاهد تختلف من واحد إلى آخر ولا يجوز أن يقرأ كل مشاهد كالآخر، وعلى الفنان أن يقدّم عمله الفني وعلى الكل أن يراه بمنظوره الخاص، وإلا أصبحت وسيلة تعليمية إيضاحية الكل يراها ويقرؤها القراءة نفسها، وهذا أمر لا يجوز لأن على المشاهد أن يرتقي كي يرى مدارك الفنان».

توءم للوحات العالمية

المستوى الفني العالي للأعمال كانت محط تأييد الجميع وحتى اعتبرها الفنان التشكيلي علي سرميني أنها توءم لما يُقدم في الخارج «المعرض جميل ويملك الفنان موهبة تاريخية مهمة وهي نتاج موهبة إضافة إلى التدريب الذي يصقل هذه الموهبة، وهذا واضح من نتائج هذا المعرض، وبطبيعتي أنا معجب جداً بالأسود والأبيض وأرى لوحات عالمية نُفذت بالأبيض والأسود والأعمال في هذا المعرض هي توءم لها».

مصور رائع

بين الحضور كان الفنان أكسم طلاع الذي أشاد بأسلوب الفنان عبدلكي وبلوحاته: «الظاهرة هذه رائعة وفن يوسف عبدلكي، أسلوبه عال جداً وفنه مهم جداً في الحركة التشكيلية السورية، والآن تعود الصالة إلى عملها ودورها بإقامة معارض ذات مستوى عالٍ وعودة الفنان يوسف عبدلكي هي عودة الألق للفن التشكيلي في دمشق، وبالنسبة للمعرض فمستواه عالٍ جداً، واليوم يقدم المرأة الأنثى بجسدها الإنساني وبكلّ ما يرتبط به من مشاعر وأحاسيس وأفكار، فالفنان لديه مقدرة عالية على التصوير في الأبيض والأسود فهو مصور رائع بالدرجة الأولى».